

## ثورة الشكّ الأدبيّ عند "طه حسين" من خلال كتابه: "في الشعر الجاهلي"

The revolution of literary skepticism among Taha Hussein  
through his book: In Pre-Islamic Poetry

اعداد

أ.د/ علاوة كوهسة

كلية الآءاب واللغات، جامعة بركة/ الجزائر

Doi: 10.12816/mdad.2021.152302

القبول : ٢٠٢١/١/١٥

الاستلام : ٢٠٢٠/١٢/٢٢

### المستخلص :

نتناول في هذا المقال قضية "الشكّ الأدبيّ" عند طه حسين من خلال كتابه "في الشعر  
الجاهلي"، الذي أثار جدلا واسعا في الساحة النقدية العربية، حيث سننوقف عند أسس  
مقاربات طه حسين للتراث الشعري العربي، ومبررات هذا الشكّ، والمسائل والقضايا  
المعتمد عليها في ذلك.  
الكلمات المفتاحية : الشكّ الأدبيّ ؛ في الشعر الجاهلي؛ طه حسين.

### Abstract:

In this article, we discuss the issue of "literary doubt" in  
Taha Hussein's "In the Pre-Islamic Poetry"("fi alshjer aljahli"),  
which raised a great debate in the Arab critical circles. The article  
will shed light on the bases of Taha Hussein's approaches to the  
Arab poetic heritage, and the reasons for this doubt in addition to  
the issues and questions on which it is founded.

**Key words:** literary skepticism; In pre-Islamic poetry; Taha  
Hussien .

### مقدمة:

فَنَح طه حسين نقاشا واسعا في الساحة النقدية العربية والغربية من خلال كتابه  
-في الشعر الجاهلي- الذي ثار فيه على السائد في قراءة وتلقي النصّ الشعري القديم  
بوصفه مقدّسا ومنتزعا عن كل قراءة وتأويل، ووصل به الحد من خلال هذا المنجز

النقدي إلى الشك في كثير من مكونات هذا الخطاب الشعري ومنتجيه أيضا، وكان طه حسين ينظر إلى هذا الشك في الشعر الجاهلي بوصفه طريقا إلى التنوير، وادعى من خلاله أنه لا يجب أن ننظر إلى أقوال القدامى النقدية في هذه المنجزات الشعرية نظرة تقديس، لأن الكثير من هذه الآراء في الأدب وتاريخه تحتاج إلى مراجعات وبحث عميق. **إشكاليات مفتاحية:**

- ما أسباب هذه الثورة على كتاب نقدي تناول التراث الشعري الجاهلي بشيء من النقد والمجابهة؟

- ماسياقات هذه الثورة التشكيكية المفاجئة التي أثارها طه حسين في هذا الكتاب؟

- فيم شك المؤلف، وما أدواته ومنهجه ومبرراته وأسلحته النقدية في هذه الثورة؟

- هل يعد هذا المبدأ التشكيكي شكلا جديدا من أشكال البحث في تاريخ الشعر العربي القديم؟

- ما استراتيجيات طه حسين في إعادة قراءة هذا المنتج الشعري؟

- هل كانت هذه الثورة على الشعر الجاهلي مبنية على أسس علمية ومنطلقات معرفية واضحة؟

- كيف تلتقت الساحة الأدبية والنقدية هذا الكتاب: "في الشعر الجاهلي" وكيف كانت الردود عليه؟

#### ١- التراث الأدبي واستراتيجيات المقاربة والتأويل:

إذا كان التراث الأدبي كنزا معرفيا، وجملة من الذخائر الفنية التي تحفظ ذاكرتنا، وتحقق لنا كثيرا من الكفايات الإنسانية والاكتفاء الجمالي الذي نعيش به ومن أجله، فإن التعامل مع هذا التراث بأدوات معاصرة يظل الأمر الأخطر على الإطلاق، لأنه لن يتمكن من إعادة فتح خزائنه إلا من يمتلك منظومة من الأدوات القرائية والإجراءات التأويلية الحادة والصارمة والدقيقة، كي لا تقتل هذا المستعاد في أول خلوة نقدية به، وذلك نظرا للقيمة الكبيرة لهذا التراث من جهة، ولقيمة ما تنتجه من إعادة قراءتنا للتراث بأدوات العصر النقدية، وبشكل التراث بكيالاته المادية والمعنوية حضورا دلاليا وكيونيا في الوعي النقدي والفلسفي الحديث، ولعل ما يميز حضوره هذا هو نوعية الأسئلة التي يثيرها بوصفه معطى حضاريا كليا<sup>١</sup>، ويتميز التراث أيضا بنوعية الأسئلة التي نطرحها عليه، واستراتيجيتنا النقدية في ذلك من أجل فك كثير من مغاليقه، وإضاءة كثير من مساحاته المظلمة، الغامضة.

بالعودة إلى بعض المطارحات النقدية المعاصرة للتراث الأدبي العربي، استوقفنا إحدى القراءات المثيرة للجدل النقدي والفكري والديني أيضا، ويتعلق الأمر بثورة الشك التي هزت بيت الشعر العربية الجاهلية، والتي كان بطلها طه حسين، من خلال كتابه "في الشعر الجاهلي" حيث أعلن الشك الصريح في وجود شعر جاهلي

أصلاً، وراح يورد المبررات في سياقات مختلفة ويزرع الشك في جغرافيا القصائد الجاهلية وتاريخ المعلقات بالخصوص، من نواحي فنية وموضوعاتية تعدت حدود المسكوت عنه، وتحدثت مسلمات عمّرت لآلاف السنين في الذهنية العربية التي تقدس هذا الشعرَ الجاهليَّ أيما تقديس.

إننا إذ نتصفح كتابَ طه حسين "في الشعر الجاهلي" تستوقفنا عبارات توحى بإيمان نقدي راسخ عند طه مفاده أن ما سيتضمنه الكتاب إنما هو بحث جديد ومقاربة متفردة في تراث أدبي ظلّ مقدساً مهيباً غير متاح للقراءة والتأويل، ومن ذلك ما قاله في صدارة كتابه: "هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديدٌ لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق أن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقاً آخر سيزورون عنه ازوراراً، ولكنني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث أو بعبارة أصح أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة"<sup>١</sup>، كما لم يخف المؤلفُ توقعه لردود الأفعال التي ستتشكل بعد اطلاع القراء على ما يتضمنه هذا الكتاب وهذا البحثُ فافتتح تقديم بحثه بعبارات دالة على ذلك ومنها: "وأكاد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه" وفعلاً هذا ما لقيه الكتاب المثير للجدل "في الشعر الجاهلي" عندما نشره في عام ١٩٢٦ وكانه كان يتوقع أن تنور ثائرة الأزهر على الكتاب، قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة المتعمدة للدين وللقرآن"<sup>٢</sup>

بدا طه حسين مقتنعاً ببحثه تمام القناعة وبمنهجه في البحث أيضاً، وبالنتائج التي توصل إليها، مؤكداً أنه خاض مجال ظل مسكوتاً عنه، وبأنه فتح صفحات جديدة في الأدب العربي، "ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعاً ما أعرف أنني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي"<sup>٣</sup>، معتبراً أن منطلقاته الشكّية كانت تهدف إلى قراءات تنويرية منتجة، وليست مجرد طعنات في جسد شعري ظل حياً محتطاً، "وإننا مطمئن أن هذا البحث وإن أسخط قوماً وشق على آخرين، فسيرضي الطائفة القليلة من المستنيرين، الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل، وقوام النهضة الحديثة، وذخر الأدب الجديد"<sup>٤</sup>

كما يرى طه أن بحثه هذا كان خياراً علمياً في تناول التراث الشعري، كي لا يبقى القارئ العربي في منطقة وسطى بين تناول هذا التراث بجد أو تقبله كما هو، إذ "نحن بين اثنين: إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قاله القدماء، لانتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي، أو أصاب ووفق أبو عبيدة، أو لم يوفق، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق، وإما نضع علم المتقدمين كله موضع البحث، لقد أنسيته، فلست أريد أن أقول البحث وغنما أريد أن أقول الشك"<sup>٥</sup>

## ٢- مبررات الشك عند طه حسين:

قبل أن يخوض طه حسين في بحثه راح يبرر لطريقته في تناول هذا التراث الشعري بمنهجه الشكي، ويؤسس لطروحاته من منطلقات جمالية في استكناه هذا التراث، ميالا إلى القراءة الحدائية له ، بعيدا عن قبول كل المسلمات النقدية التي قيلت في الشعر الجاهلي، معرجا على مذهبين نقديين لهذا التراث، ويقصد مذهب القدامى ومذهب المحدثين، حيث "الفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب، وينتهي في الكثير من الأحيان إلى الإنكار والجدود"<sup>٧</sup>، ويستعرض طه مرتكزات أصحاب النظرة القديمة للشعر ويبيد عليهم بعض المآخذ في قوله: "فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة، معبدة، والأمر عليهم سهل يسير، ليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار في العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرا من الشعر؟ ليس قد اجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة تتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقدار من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم روااتهم وتناقله عنهم الناس حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله أن يبقى لأيامنا"، ويرد عليهم بجملة من الآراء والرؤى: "وإذا كان العلماء قد اجمعوا على كل هذا فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا إلينا آثار الشعراء وفسروها فلم يبق إلا أن نأخذ عنهم ما قالوا راضين به مطمئنين إليه ، فإذا لم يكن لأحدنا بدّ من أن يبحث وينقد ويحقق فهو هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم"<sup>٨</sup>، ويستعرض في رده على أصحاب النظرة القديمة في تناول الشعر بعرض آراء أنصار النظرة الجديدة لهذا الموروث: "أما أنصار الجديد فالطريق أمامهم معوجة ملتوية، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى وهم لا يكادون يمضون إلا غي أناة وريث، هما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة، ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان، والاطمئنان فقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا وهم لا يريدون أن يخطوا في تاريخ الأدب خطوة حتى يتبنوا موضعها، وسواء عليهم واقفوا القدماء وأنصار القديم أم كان بينهم وبينهم أشد الخلاف، هم لا يطمنون إلى مقال القدماء وإنما يلقون بالتحفظ والشك"<sup>٩</sup>

يبدو التحريض النقدي واضحا في مقدمة الكتاب، حيث لا يكتفي المؤلف بعرض رؤية المحدثين إلى التراث الشعري الجاهلي، بل يشجعهم على إعادة الخوض فيه دون الإيمان بمسلمات النقاد القدامى الذين تناولوه بتقديس زائد، و"لعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا، هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي، فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه، ويتساءلون: أهنالك شعر

جاهلي؟ فإن كان هناك شعر جاهلي، فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبمّ يمتاز من غيره؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى روية وأناة، وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد"<sup>١١</sup>، وينتقد طه حسين أيضا الباحثين الجاهلين بتاريخ العرب، ويرى أنه لا بد للباحث في الشعرية العربية القديمة أن يكون عارفا بكل السياقات المحيطة بهذا النص الشعري القديم، لأنها أوجدته وأثرت فيه وفيه من محمولاتها الكثير، إذ "هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أن لأولئك من جرهم وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطولات، ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك، ويريدون أن يستبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟"<sup>١٢</sup>

### ٣- الحصانة الفنية في ثورة الشك عند طه:

يتحصن طه حسين في ثورة شكه بحصون فنية بريئة خالصة كما يبدي للقارئ أول مرة "وأول شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك أو قل ألح علي الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو أقرب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين"<sup>١٣</sup>، ويتضح من هذه الأحكام أنه لم يجد الروح الجاهلية ماثلة في متون الشعر الجاهلي، وأنها كانت أقرب إلى الروح الإسلامية منها إلى روح العصر الجاهلي من حيث أهواؤها وعواطفها، ومن ثمة كانت انطلاقة طه الشك في هذا الصرح الشعري العريق، منتهجا الشك الديكارتية، "في هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك- الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته أن الشعر الجاهلي منحول - أي لا ينتمي لقائله- وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زععت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي"<sup>١٤</sup>

لا يخفى على قارئ كتاب طه "في الشعر الجاهلي"، الشك في الصورة الأدبية للأدب الجاهلي، وهو مرتكز فني آخر جعله طه مدخلا إلى مواطن هذا التراث لحاجة في نقده وبحثه، فيقول: "وأكد لا أشك في أن ماتبقى من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا، لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي، وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية، ولكنني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإداعتها، ولا أضعف على أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ماتقرؤه على أنه شعر امرئ أو طرفة أو ابن كلثوم، أو عنتره ليس من هؤلاء الناس في شيء وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو

اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين"<sup>١٥</sup>، ويتعدى شكه الصورة الأدبية لهذا الشعر، إلى الطعن في كل من يعتمد على هذا التراث الشعري في توصيف الصورة الأدبية الحقيقية الصحيحة لهذا العصر.

يطرح طه حسين أيضا في مقدمة هذا الكتاب بدائل أخرى للتعرف على الحياة في العصر الجاهلي بعدما نفى عن الشعر مقدرته على ذلك بحكم انتحاله وزيفه، ومن هذه البدائل والأدلة المتاحة للتعرف على الحياة في العصر الجاهلي، القرآن، التاريخ أم الأسطورة؟

إذ "نستطيع أن نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا، ولكن بشرط ألا تعتمد على الشعر، بل على القرآن من ناحية، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى"<sup>١٦</sup>

#### ٤- المسائل التي اعتمدها طه في تبرير نظرية الشك:

تطرق طه حسين في هذا الكتاب إلى مباحث سياقية محيطية ببيئة الشعر الجاهلي ومنها:

- أ- الفرس والشام والعراق ومصر بعد الفتح وعلاقتها باللغة.
- ب- نشأة العلوم الدينية واللغوية وعلاقتها بالأدب واللغة.
- ج- اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده وعلاقة اليهود بالأدب العربي.
- د- المسيحية وانتشارها في بلاد العرب قبل الإسلام وتأثيرها في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية وعلاقة كل هذا بالأدب.
- هـ- مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الإسلام وأثرت في الأدب العربي هذه المباحث الخمسة تنتهي كلها إلى تلك النظرية التي قدمها وهي أن كثرة الشعر الجاهلي ليست شعرا جاهليا.

#### ويقول عن هذه المباحث:

"لن أقف عند هذه المباحث لأنني أقف عندها فيما بيني وبين نفسي، بل جاوزتها واري دان أجوزها معك إلى نحو آخر من البحث أظنه أقوى دلالة وأنهض حجة من المباحث الماضية كلها، ذلك هو المبحث الفني واللغوي، فسينتهي بنا هذا المبحث إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين، لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن"<sup>١٧</sup>

وبعد عرضه لهذه المباحث السياقية حول الشعر الجاهلي راح يخوض في المنهج الديكارتي المشكاك، "والواقع أن استيعابنا للتراث يستدعي تحديد الرؤية والمنهج اللذين يتحدد في ضوءهما علاقتنا بهذا التراث ووعينا له وفهمنا إياه"<sup>١٨</sup>، وفي هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك -الذي استحدثه ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته ان الشعر الجاهلي منحول (أي لا ينتمي لقاتله) وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا

المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زعزت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي" <sup>١٩</sup>، ولم يخف طه تأثيره بهذا المنهج وبصاحبه، ورأى فيه المنهج الأنسب لتناول هذا التراث الشعري الزاخر، "أسألك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولونه من العلم والفلسفة، أريد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثته (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شكل كان يعلمه من قبل أن يستقبل موضوع بحثه، خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما" <sup>٢٠</sup>.

#### ٥- تطبيق المنهج الديكارتي/الخلاص من المقومات :

يرى طه في منهج الشك الديكارتي خلاصا من كثير من المعيقات لروح البحث العلمي ونقد الشعر الجاهلي بصيغ منتجة للمعرفة والحقيقة، ومن هذه القيم التي يرى ضرورة التخلص منها وولوج البحث دون قيودها : وهم القومية و سلطة الدين و حدود التاريخ، وكل الأحكام المسبقة التي توجه البحث وتعرقل النقد العلمي الجاد، "ولنتقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا، نعم يجب أن نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه، أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين، يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح" <sup>٢١</sup>، كما أن إلغاء الدين والقومية منهج شكّي بامتياز في نظر طه حسين، "إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف (... ) وهل فعل العلماء غير هذا وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا" <sup>٢٢</sup>، وذلك -حسب رأيه- لأن المسلمين بحائثة لا يمتنون إلى العلم بصلة وأعمالهم دينهم عن الولوج إلى جواهر الأشياء بروح علمية تجعلهم قريبين من ألباب النصوص المدروسة والقضايا المطروحة للنقاش، إذ "كان قدماء المسلمين مخلصين في حب الإسلام فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذه، وما نافرته انصرفوا عنه انصرافا" <sup>٢٣</sup>

لقد أودى المنهج الديكارتي المشكك بطه حسين إلى الشك في الشعر الجاهلي وفي كل السياقات المحيطة به، وورطه في بعض القضايا الموازية له والمصاحبة سواء من قريب أو بعيد، فراح يستعمل هذا المنهج معولا لهدم وتغييب كثير مما كان يرى الأوائل بقدرتها كالتاريخ والدين والقومية الجارفة، وهو ما يكشف ربما لأن طه لم يكن متحكما في أصول المنهج وإجراءاته، لأن أسلوب الشك "وهو أسلوب مآكر من أساليب الغزو الثقافي أريد به إدارة الأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية في دائرة الأبحاث الإدارية،

والتشكيك والتهمك والسخرية، بحيث يرى القارئ انه إزاء جو مغرق في الاستهانة والاحتقار، لكل ما يتناوله" <sup>٢٤</sup>، خاصة عندما تعلق الأمر بالأمر العقدي، ومن ذلك ما تحدث عنه "أنور الجنيدي" وما أورده من أقوال لطفه حسين في هذا الكتاب "يقول الدكتور طه حسين في بحث له العبارة التالية"أخضعت للشك (دون أن أمس الدين) بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول'. أي أسلوب في المكر والتضليل أبعد من هذا حين يعترف بأنه أخضع بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن للشك؟ وكيف انه حين فعل ذلك لم يمس الدين الذي هو مصدر الاعتقاد، والذي هو منطلق كل ما ورد في القرآن <sup>٢٥</sup>، ولا مبرر لهذا التطرف النقدي في طابعه الشكي عند طه حسين سوى تأثيره الأعمى بديكارت، ونشعر بهذا التماهي للمؤلف في إعلانه المنهج الديكارتية الأجدر والأحق بالدراسات المعاصرة في كل الميادين، "فأنت ترى أن منهج ديكارت هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا" <sup>٢٦</sup> ولم يتوان أنور الجنيدي في الرد على هذا العمى المنهجي لطفه حسين، فراح يحكم على المنهج الديكارتية في استعماله السيء للمؤلف، واصدر حكمه الفاسي عليه، "قد حاول الدكتور طه حسين أن يعتمد على ما أسماه مذهب ديكارت في إشاعة هذا الأسلوب، ولكن يبدو انه لم يكن يصدر عن أساس علمي أصيل، وإنما هي محاولة مظهرية خادعة، لخلق أرضية لإثارة الشبهات، حول كل القيم والعقائد والمفاهيم، التي يقوم عليها الأدب العربي، بل الفكر الإسلامي نفسه، وقد ركز الدكتور طه في اعتماد ما أسماه مذهب ديكارت على اعتقاد أن أحدا لن يناقشه في هذه الآراء" <sup>٢٧</sup>، كما أورد أنور الجنيدي بعض آراء المعاصرين لطفه حسين ممن رأوه الناقد المارق المتطرف الهادم للتراث الشعري الجاهلي ومن هؤلاء:

#### أرأي عمر فروخ في شك طه حسين:

"إن من أبرز معالم أدبه ترده بين المفهوم وغير المفهوم والمنحول والثابت، والممكن وغير الممكن، ولم تره في كتاب إلا داعية للشك ولا في مقالة إلا أخذا بالظن، لم يثبت في حياته شيئا، بل كان ينفي ما يثبت نفسه بنفسه وهو يكتب (لعل ربما) ويقول رأيه على التأويل والدوران والتغيير" <sup>٢٨</sup>

#### بـ رأي العقاد:

"هناك النقيضة الظاهرة في أسلوبه بين الحزم والتشكيك، إن أخصب ألفاظ للشك، في كلامه من أمثال: ازعم، قد أزعم، ولعله يكون، ولعله لا يكون، ربما ضحكتن ربما بكيت، وتحسبه في الشك لا يستقر على شيء" <sup>٢٩</sup> وهما رأيان حاذان صارمان ضد من كان يعتقد انه عميد الأدب العربي فإذا به يهدم أسسه ويعكر صفاء بداياته، إذ ظل طه حسين طوال حياته مترددا مشكاك لا يستقر على رأي، كما يرى معاصراه عمر فروخ والعقاد.



## ٦- بين القرآن والشعر/الشاهد والمشهود عليه:

لقد نقلنا طه حسين من حديثه عن الشك الكبير في الشعر الجاهلي، وقناعته بان مانتدارسه في هذا العصر من شعر نعتقه جاهليا ما هو إلا نماذج منتحلة مكذوبة لا تمت إلى الحياة الجاهلية بصلة أو نسق أو ملمح، انتقل بنا إلى قناعة أخرى وهي أنه لا يمكن لنا أن نستشهد بهذا الشعر الموضوع المنتحل على تفسير القرآن وتأويل الحديث، من منطلق أن ما يؤسس على باطل فهو باطل، فلا يمكن في رأيه الاستشهاد بشعر مكذوب على نص سماوي وحديث نبوي، كما جاء في كتابه: "وسينتهي بنا هذا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله، أريد أن أقول إن هذه الأشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على شيء ولا ينبغي أن تتخذ وسيلة إلى ما اتخذت إليه من علم القرآن والحديث، فهي إنما تكلفت واخترت اختراعا يستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه"<sup>٣٠</sup>، ويقر طه حسين أن محاولة تتبع حيثيات الحياة الجاهلية لا يكون إلا من خلال النص القرآني لا من خلال الشعر الجاهلي، لأن روح الجاهلية مفقودة في ما نعتقد بأنه شعر جاهلي "مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتصق في القرآن لا في الشعر الجاهلي"<sup>٣١</sup>، كما "لا أنكر الحياة الجاهلية ولكن أنكر أن يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فاستأسلك إليها طريق امرئ القيس والنابعة والأعشى وإنما أسلك إليها طريقا أخرى وادرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه"<sup>٣٢</sup>

## ٧- الشعر الجاهلي لا يعكس تدين الجاهليين:

لا يفوت طه حسين إنكاره للشعر الجاهلي واستحالة الاستدلال به على معرفة الحياة الجاهلية وروحها، بل يتجاوز ذلك إلى الإقرار بأن هذا الشعر لا يمكن أن نستدل به على الحياة الدينية في العصر الجاهلي، لأنه يكاد يخلو من مظاهر تدين الإنسان الجاهلي الذي كانت له عقائد واهتمامات وتمظهرات دينية نكاد نفتقدها في الشعر الجاهلي الذي نعتقه كذلك، "ما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين والبحث عنها في القرآن.. فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العلمية، وإلا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟

أوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين.. وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل"<sup>٣٣</sup>، والقارئ المتعمق في ما وصلنا من شعر جاهلي لا يكاد فعلا أن يعثر

على إشارات واضحة عميقة للوجه الديني للإنسان الجاهلي، فالذي أبداه في تصوير الذات الجاهلية والفضاء الأهوائي الرهيب في ذلك العصر، كيف يعجز أو يغيب تصوير الحياة الدينية؟ وهو ما يجعل فرضية طه حسين في هذه الجزئية قريبة من الحقيقة وتجيز له بشكل ما التشكيك في هذا الإرث الشعري الرهيب.

#### ٨- الشعر الجاهلي وإشكالية اللغة:

بعد أن أنكر طه حسين استحالة الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الحياة الدينية في العصر الجاهلي، راح ينكر أيضا بان نستدل على اللغة الجاهلية انطلاقا من هذا الشعر المنتحل، وذلك انه لا يمثل الحقيقة اللغوية للإنسان الجاهلي، "على أن هناك شيئا آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ولعله أبلغ في إثبات مانذهب إليه فهذا الشعر الذي رأينا لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب، الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه، والأمر يحتاج هنا إلى شيء من الروية والأناة، فنحن هنا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حين نبحث فيها عن لفظ اللغة ماعناه نريد بها الألفاظ من حيث هي ألفاظ تدل على معانيها تستعمل حقيقة مرة ومجازا مرة أخرى، وتتطور ملائمة لمقتضيات الحياة التي يحيها أصحاب هذه اللغة فنقول إن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية"<sup>٣٤</sup>، كما كان للهجاء في الجاهلية أثرها على العروض، وهو دليل إقاعي يعزز الفرضيات والقناعات التي تحدث عنها طه في هذا الكتاب المشكاك، "اختلاف اللهجات له أثره لطبيعي اللازم في الشعر، في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام، ولسنا نستطيع أن نفهم كيف استقامت أوزان الشعر وبحوره وقوافيه كما دونها الخليل لقبائل العرب كلها على ما كان بينها من تباين اللغات واختلاف اللهجات"<sup>٣٥</sup>، وليس هذا شكا في النظرية الخليلية الدقيقة المعجزة، بل هو شك في الشعر الجاهلي الذي كان المدونة التي اشتغل عليها الخليل في ابتكار علم العروض.

#### ٩- أسباب انتحال الشعر كما يراها طه حسين:

قبل تحدثه عن أسباب انتحال الشعر الجاهلي، يتطرق طه حسين إلى تاريخ الانتحال لدى الأمم الأخرى مبينا أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الأمة العربية فقط، "فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا وحمل على قدمائها كذبا وزورا وإنما انتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائها وانخدع به الناس وأمنوا له، ونشأت عن هذا الانخداع والإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها حتى هذا العصر الحديث، حتى استطاع النقاد من أصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة أن يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا"<sup>٣٦</sup>، ومن الأسباب المباشرة لانتحال الشعر، ما ارتبط بالجانب الديني، أي إن هناك علاقة بين الدين وانتحال الشعر لأن "الشعراء ينتحلون الشعر وينسبونه للجاهليين وكأنهم كانوا ينتبؤون بمجيء

النبي، خدمة للدين" فكل هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبي وكان هذا النوع موجها إلى الناس عامة (...). وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع الكثير "٣٧، فإذا كان المنتحلون نسبوا الشعر للجن فكيف لا ينسبونه لبشر؟ ومن ذلك حين "رووا شعرا قالتها الجن، تفتخر فيه بقتل سعد بن عبادة:

قد قتلنا سيدَ الخزرج سعدَ بنَ عباده - ورميناه بسهمين ولم نخطئ فؤادَه  
وكذلك قالت الجن شعرا رثت فيه عمر بن الخطاب:

أبعد قتيل في المدينة أظلمت ... له الأرض تهتز العضاء بأسوق

جزى الله خيرا من إمام وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق"٣٨

لعل أخطر ما سببه الشك في الشعر الجاهلي ليس المنتج الشعري في حد ذاته، بل كل ما تلا هذا المنتج بالدرس والنقد، أي إنه إذا كان الشعر الجاهلي منتحلا كما قال طه حسين فإن كل الكتب والمصنفات التي تناولته وصنفته طبقات ومراتب وتدارست مضامينه وفنياته قد هز أركانها الشك ونسفا طه حسين في جرة قلم ولحظة شك، ومن ذلك تعجب طه حسين بل سخريته من مجهودات جبارة قام بها نقاد الشعر الجاهلي القدامى، ومنهم ابن سلام الجمحي، "ولعل من أوضح الأمثلة على انخداع ابن سلام لعن هذا الشعر المنتحل هذه الطائفة التي رواها على أنها أقدم ما قالتها العرب ممن الشعر الصحيح، والتي يضاف بعضها إلى جذيمة الأبرش، وبعضها إلى زهير بن جناب، وبعضها إلى العنبر بن تميم، وبعضها إلى أعصر بن سعد بن قيس، وكل هذا الشعر إذا نظرت فيه سخيظ سقيم ظاهر التكلف بين الصنعة، واضح جدا أن راويا من الرواة أو قاصا من القصاص تكلفه"٣٩، كما يرى طه أن للشعبوية الأثر البالغ في ظاهرة انتحال الشعر الجاهلي، بوصف هذه النعرات مبعثا للتسلح بأدوات مجابهة الآخر، فكان الشعر الأداة الأساس في هذا الجدل والحوار بين الفرق والطوائف، "أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعبوية قد انتحلوا أخبارا وأشعارا، كثيرة وأضافوها إلى الجاهليين، والإسلاميين"٤٠، ويقسم طه حسين رواة الشعر الجاهلي إلى قسمين، "وهم بين اثنين: إما أن يكونوا من العرب، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، وإما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما يتأثر به الموالي (...). ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما: مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق، إلى ما يباه الدين وتكره الأخلاق"٤١

هناك نقاط ومرتكزات كثيرة اتخذ منها طه حسين مبررات لثورة الشك في الشعر الجاهلي، وهو ما جعله يخلص في الأخير إلى ما بين بأنه سيثير الكثير من الردود بين الرفض والسخط، ومن هذه القرارات والشكوك والظنون قوله: "نظن أن أنصار القديم لا يطمعون مثلنا في أن نغير لهم حقائق الأشياء أو أن نسمي الحقائق بغير أسمائها، لنبلغ

رضاهم وتجنب سخطهم، (... ) ولن نستطيع أن نعتزف بان ما يروى من سيرة هؤلاء، الشعراء الجاهليين وما يضاف إليهم من الشعر يمكن الاطمئنان إليه أو الثقة به<sup>٤٢</sup>، حيث بدأ طه حسين كتابه بهذه العبارة 'وأكد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه' وفعلاً هذا ما لقاه الكتاب المثير للجدل 'في الشعر الجاهلي' عندما نشره في عام ١٩٢٦ وكانه كان يتوقع أن تثور ثائرة الأزهر على الكتاب، قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة المتعمدة للدين وللقرآن<sup>٤٣</sup>، ففي هذا الكتاب طبق طه حسين على الشعر الجاهلي المنهج الفلسفي- منهج الشك - الذي استحدثه ديكرات للبحث عن حقائق الأشياء، وخلص إلى استنتاجاته وتحليلاته أن الشعر الجاهلي منحول - أي لا ينتمي لقائله - وأنه كتب بعد الإسلام ونسب لشعراء ما قبل الإسلام، وبفضل هذا المنهج وصل إلى نتيجة منطقية زعزت اليقين الذي كان يحوم حول الشعر الجاهلي<sup>٤٤</sup>.

#### ١٠- تخريجات ختامية:

- يعدّ كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" هزة كبرى في المشهد النقدي العربي الحديث، لما أحدثه من جدل علمي في مباحث تتعلق بالشعر الجاهلي.
- لم يكن شكّ طه في المدونة الشعرية الجاهلية ذا قيمة من حيث الأساليب في المعالجة أو أسبقيته في تطبيقات المنهج الديكارتي الشكّي، إنما أهميته وخطورته من حيث جرأته في محاولة نسف إرث شعري عمره آلاف السنين، وقداسته ذات جذور ممتدة في المتون النقدية العربية عبر التاريخ.
- آمن طه حسين منذ البداية بأن بحثه سيلقى من الناقلين الكثير ومن المؤيدين الكثير وأن كلا الفئتين في صالحه لأن البحث القيم يلقي تقبلاً كبيراً مهما اختلفت أحكامه.
- يرى طه حسين أن الشعر الجاهلي كان منتحلاً بصفة كبيرة، وأنه مجرد نصوص مقولة منتحلة من عصر غير العصر الجاهلي.
- يرى طه أن هناك أسباباً كثيرة لظاهرة الانتحال، ولعل أهمها ما كان ذا بواعث دينية شعوبية، وكان أصحاب هذه الالتفاتات إلى الانتحال يرون في الشعر أدوات يجابهون بها نظراءهم وأعداءهم وغرماءهم، فاصطنعوا الشعر وقولوا غيرهم واستعاروه منهم وتصرفوا فيه ليخدم مقولاتهم وأغراضهم.
- لم يعكس ما يسمى بالشعر الجاهلي الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية الجاهلية الحقيقية ولا يمكن أن ننكئ على هذه التركة الشعرية المنتحلة للتدليل على مظاهر الحياة الجاهلية أبداً كما يرى طه حسين، وأن النص الوحيد الذي نعتمده في مقارنة الحياة الجاهلية هو النص القرآني فقط.
- يرى طه حسين أنه لا يمكن الاستشهاد على العصر الجاهلي بالشعر المنتحل وأن النص القرآني هو من يعتمد عليه في معرفة الحياة الجاهلية وكامل مناحيها.

- يعد بحث طه حسين غوصا عميقا في المدونة الشعرية العربية، وتوغلا جريئا في التراث ولكن بمنهج خطير يتجاوز المقدرة العلمية والكفاءة الإجرائية لطه حسين وذلك ما عبر عنه كثير العارفين بالمنهج الديكارتي الذي كان أعتى من أن يهضمه طه ويطبقه على تراث شعري غني وغازير وكثير المغاليق.

- يتطلب منا البحث في ثورة الشك عند طه حسين التوقف عند بعض الأسئلة العميقة التي طرحها المؤلف، والتركيز على المقولات النقدية التي قارب بها طه التراث الشعري الجاهلي، بعيدا عن أي تعصب ديني وفكري، وتصفية حسابات قرائية لهذا التراث، ويحتاج هذا منا قراءات مختلفة متأنية لكتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين.

## الهوامش:

١. خيرة حمر العين: جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٦، ص ٦٢
٢. طه حسين: في الشعر الجاهلي،- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٢٦ ص ١
٣. نهى سيلين الزبرقان، ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين، موقع الحوار المتمدن، العدد ٣١، ٣٥٣٢، ١٠-٢٠١١.
٤. طه حسين: المصدر السابق، ص ١.
٥. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
٦. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
٧. المصدر نفسه، ص ٢
٨. المصدر نفسه، ص ٣
٩. المصدر نفسه، ص ٢
١٠. المصدر نفسه والصفحة نفسها
١١. المصدر نفسه، ص ٣
١٢. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
١٣. المصدر نفسه والصفحة نفسها
١٤. نهى سيلين الزبرقان، ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين، موقع الحوار المتمدن العدد ٣١، ٣٥٣٢، ١٠-٢٠١١.
١٥. طه حسين : المصدر السابق، ص ٣-٤
١٦. المصدر نفسه، ص ٤
١٧. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
١٨. " خيرة حمر العين: المرجع السابق، ص ٦٤
١٩. نهى سيلين الزبرقان، ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين، موقع الحوار المتمدن العدد ٣١، ٣٥٣٢، ١٠-٢٠١١.
٢٠. طه حسين: المصدر السابق، ص ٥
٢١. المصدر نفسه والصفحة نفسها
٢٢. المصدر نفسه والصفحة نفسها
٢٣. المصدر نفسه والصفحة نفسها
٢٤. أنور الجندي: خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، ص ٨٥.
٢٥. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
٢٦. طه حسين: المصدر السابق، ص ٦

٢٧. أنور الجنيدى: المرجع السابق، ص ٨٦
٢٨. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
٢٩. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
٣٠. طه حسين: المصدر السابق، ص ٤
٣١. المصدر نفسه، ص ٦
٣٢. المصدر نفسه والصفحة نفسها
٣٣. المصدر نفسه والصفحة نفسها
٣٤. المصدر نفسه، ص ٩
٣٥. المصدر نفسه، ص ١٤
٣٦. المصدر نفسه، ص ١٨
٣٧. المصدر نفسه، ص ٣٢
٣٨. المصدر نفسه، ص ٣٣
٣٩. المصدر نفسه، ص ٤٩
٤٠. المصدر نفسه، ص ٥٠
٤١. المصدر نفسه، ص ٥٥
٤٢. المصدر نفسه، ص ٥٨
٤٣. نهى سيلين الزبرقان، ملخص كتاب في الشعر الجاهلي لعميد الأدب العربي طه حسين، موقع الحوار المتمدن، العدد ٣١، ٣٥٣٢، ١٠-٢٠١١.
٤٤. المرجع نفسه.